بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

لم أكن أتوقع عندما صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب من مكتبة مدبولي منذ نحو ثماني سنوات أن يكتب لها هذا الذيوع والانتشار خاصة أن الكتاب كان باكورة مؤلفاتي، ولكني فوجئت بانتشار واسع للكتاب ليس على المستوى العربي فحسب إنما على مستوى الجامعات الغربية خاصة الأمريكية فهناك نحو عشرين جامعة غربية من أفضل خمسين جامعة على مستوى العالم يوجد هذا الكتاب في مكتباتها رغم أنه لم يترجم إلى اللغة الإنجليزية، وصدق توقع الأستاذ إبراهيم المشرف على النشر في مكتبة مدبولي عندما قال لي : إن هذا الكتاب سيساهم في تغيير الفكر العربي ، واعتبرت كلامه يومها مجاملة لطيفة .

وبعد نشر الكتاب سرني ردود الفعل الطيبة التي أحدثها الكتاب لدى من أعرفهم ومن لا أعرفهم من داخل مصر وخارجها ولله الفضل والمنَّة ، وكان بعض من هاتفني من البلاد العربية يشفق عليَّ من المتطرفين ، وكنت أطمئنهم أننا – المصريين – نحب التدين الوسطي ونكره التطرف والإرهاب ، ويعجب الإخوة العرب عندما يعلمون أن مجمع البحوث الإسلامية صرَّح بنشر الكتاب ولم يعترض على حرف واحد فيه رغم الآراء الجريئة التي تضمنها .

وهاأنذا يشرفني أن أعيد طباعة نشر الكتاب مرة ثانية في طبعة جديدة مزيدة ومنقَّحة ، بناءً على رغبة صادقة من الأستاذ يحيى عبد الرحمن رئيس مجلس إدارة دار زهور المعرفة والبركة ، وقد استفدت في هذه الطبعة من كل دراساتي الدينية اللاحقة على نشر هذا الكتاب وكل الملاحظات المفيدة التي أبدها من قرأ هذا الكتاب.

محمد يونس هاشم
٢/ ١٢/ ٢٠١٢

obeikandi.com

obeikandl.com

مقدمة الطبعة الأولى

إن الناظر فى أحوال المسلمين فى الآونة الأخيرة ليستولى عليه العجب لأنه سيفاجأ بأن المسلمين – خير أمة أخرجت للناس– متهمون بأنهم :

١ – متخلفون على مستوى الحضارة .

٢ – ضعفاء على مستوى القوة .

٣ – متطرفون على مستوى الرأى .

٤ – منحلون على مستوى الأخلاق .

٥ – فاسدون على مستوى الذوق .

هل هؤلاء المسلمون حقاً أحفاد المصريين القدماء ، والآشوريين ، والبابليين ؟!

هل هم حقا أحفاد صانعى أول حضارات فى التاريخ حضارات مازال العالم عاجزا عن كشف أسرارها حتى الآن ؟!

هل هؤلاء هم حقا أحفاد المسلمين الأوائل الذين حرروا الدنيا من الطغيان ، والجهل ، والتخلف ، وملئوها : عدلاً ، وهدى ، وعلماً ، ورحمة ؟!

كيف وصلنا إلى هذا الدرك الأسفل وقد كنا فى الدرجات العلا ؟!

أين ديننا الحنيف ؟ أين تاريخنا المجيد ؟

أين علماؤنا ومفكرونا ؟ أين خطباؤنا ومثقفونا ؟!

تساؤلات كثيرة يطرحها الواقع المتردى الذى نعيشه .

تساؤلات كثيرة تحتاج لمن يكشف لنا هذا اللغز المحير الذى جعل خير أمة أخرجت للناس أسراباً من البغاث لا وزن لهم ولا شأن موصومون بكل رذيلة ، عارون من كل فضيلة .

فى هذا الكتاب نحاول الإجابة عن هذه التساؤلات .

كما نحاول الإجابة عن غيرها من أسئلة أخرى .

obeikandl.com

الحكمة التي يجب أن نعيها جيدا تقول : إن من يجعل ظهره مطية فلا يلومن من يركبه ، وإن من ظلم نفسه فلا ينتظرن من عدوه إنصافاً .

والحقيقة التى تتبدى ناصعة لا ريب فيها أن كثيراً من المسلمين فى الآونة الأخيرة أساءوا فهم الدين والدنيا جميعاً بل وأساءوا فهم أنفسهم ودورهم الحضارى الرائد .

إن كثيراً من المنتسبين لهذا الدين العظيم اليوم أصبحوا مضرب المثل للتخلف والرجعية ، وصاروا لقمة سائغة فى فم أعدائهم ، وكل يوم ينتقص من بلادهم ومن كرامتهم رغم أن هذا الدين نفسه حقق به المسلمون الأوائل حضارة عظيمة قادت العالم لمدة ألف عام كان المسلمون فيها أفضل الأمم : خلقاً ، وعلماً ، وحضارة ، وقوة .

إنَّ كثيراً من المنتسبين لهذا الدين العظيم أخذتهم العزة بالإثم .

متخلفون ويرمون غيرهم بالجاهلية .

لا يكفون عن رمى الغرب بكل مثلبة من انحراف خلقى ، واعوجاج سلوكى ، وفساد عقدى ، وفى نفس الوقت يعيشون عالة على ما يصنعه لهم هذا الغرب الرجيم ؛ لا يزرعون ما يأكلون ، ولا ينسجون ما يلبسون ، ولا يصنعون ما يستخدمون . وإنَّ أحدهم أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء قائلاً : يا رب أهلك الغرب ! يا رب أهلك الأمريكان ! ومطعمه من الغرب، ومشربه من الغرب ، وملبسه من الغرب ، غُذِى من الغرب.. فأنى يستجاب له ؟!! (١)

ونحن لا نطلب الافتتان بالغرب في مفاسده وضلالاته ، كما لا نطلب الجهل بعلومه الحديثة وتقنياته .

إن السر فى تخلف المسلمين ليس فى نصوص الدين– القرآن الكريم وصحيح السنة – نفسها فهى صالحة لكل زمان ومكان بفضل ما حباها الله تعالى بها من قابليتها : للفهم المتجدد ، والواقع المتغير ، والمعارف المتنامية ، والتقدم المذهل للعلم { أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} (الملك : ١٤)

وليست هذه الخصائص التى تميز الشريعة الإسلامية عن أى شريعة أخرى دينية أو دنيوية بالشعارات الجوفاء أو بالأمر المستحدث الطارئ عليها إنما هى خصائص

---

(١) جاء فى صحيح مسلم عن النبى ﷺ " ثُمّ ذَكَرَ الرّجُلُ يُطِيلُ السّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ. يَمُدّ يَدَيْهِ إِلَى السّمَاءِ. يَا رَبّ يَا رَبّ وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِى بِالْحَرَامِ. فَأَنّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ " .

أصيلة فيها ، التاريخ شاهد على ذلك ، متى قيض الله لها العلماء المجتهدين العالمين العاملين ، والمسلمين المؤمنين العاملين المخلصين .

إذن العيب ليس فى الشريعة الغراء إنما العيب فى المسلمين من : المتحدثين باسم الدين ، والمتثقفين ، والفنانين ، أولئك الأناس الأعلى صوتاً والأكثر تأثيراً والأوسع انتشاراً ، أولئك المتطرفون فى الدين أو الدنيا .

إن المتحدثين باسم الدين الأعلى صوتاً والأكثر تأثيراً والأوسع انتشاراً هم "النصِّيون الحرفيون" [١] و" الظاهريون البدو " [٢] و" المتنطعون " وهم غير " علماء الدين " الذين قال الرسول الكريم ﷺ فيهم أنهم ورثة الأنبياء .

" إِنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ ، وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَاراً وَلاَ دِرْهَماً وَإِنَّمَا وَرَّثُوا العِلْمَ ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ " (رواه أبو داود والترمذي)

أما النصِّيون الحرفيون الذين نعنيهم فهم أولئك النفر الذين لم يفهموا خصائص هذا الدين الحنيف الشاملة الوسطية الواقعية إنما فهموا الدين على إنه بعض النصوص المجتزأة التى يفسرونها تفسيراً حرفيا بعيداً عن مقاصد الشريعة ، وفقه الواقع ولا علاقة لهذه النصوص المجتزأة ، في الغالب ، بالعلم الصحيح ولا بالعقل الصريح ، ولا بالواقع المعيش !

---

(١) المفسر الحرفي يجتزئ فقرة ما من النص المقدَّس ويعزلها عن الرؤية العامة، ثم يلوى بعد ذلك عنق النص ويوظفه بالطريقة التى تَعِنُّ له، أي أنه يفرض عليه أى معنى، إذ أن المفسر الحرفى قد تحرَّر تماماً من القيود الأخرى التى يفرضها عليه النص المقدَّس من خلال معناه الكلى .

(٢) ويقصد بهذا المصطلح أولئك الوعاظ المتخلفون حضارياً الذين ما زالوا يعيشون فى كهوف الجاهلية العربية ويصرون على صب الإسلام فى قالب العادات والتقاليد العربية البائدة ، أولئك الجهال بكل علم حديث وبكل معرفة إنسانية نافعة .

نقصد بهذا المصطلح " الظاهريون البدو" أولئك البدو غلاظ القلوب والأكباد الذين نصَّبوا أنفسهم كهاناً للإسلام ، دون مؤهلات علمية حقيقية ، وورثة لشريعته ، أولئك الذين لم يجز النبي شهادتهم "لا تَجُوزُ شَهَادَةُ بَدَوِى عَلَى صَاحب قَرْيَة " وقد نزل في حقهم: {الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل اللّه على رسوله} أولئك البدو الذين قال النبى ﷺ فيهم : " أبغض الناس إلى الله ثلاثة: ملحد في الحرم، ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية، ومطَّلب دم امرئ بغير حق ليهريق دمه " (رواه البخاري) والمدهش أن هؤلاء البدو الأجلاف المتنطعين متكبرون يصرون على قَصْر فهم الدين عليهم وحدهم ولا يسمحون بالاختلاف معهم وكأن الدين ميراث شخصى ورثوه كما ورثوا لبس الجلابيب والعمامة .

ونقصد بالعلم هنا العلم الشامل الذى يكشف أسرار الكون ويستنبط قوانينه وينبه الأفهام ، ويوقظ العقول لترى وتدرس آيات الله فى الآفاق الكونية ، وفى النفوس البشرية .

{ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ } (فصلت : ٥٣)

ونقصد بالعقل الصريح هو ما يُميِّز به الحق من الباطل والصواب من الخطأ ولا يتحكم فيه هوى وولا تنحرف به شهوات .

أما فقه الواقع فنعنى به التحليل العميق ، والفهم الدقيق لأحوال المسلمين : اجتماعية ، واقتصادية ، ونفسية ... ، وفهم الواقع الخارجى: سياسيّاً ، واقتصاديّاً ، وعسكريّاً ، وعلميّاً ..، وفهم أهم الأفكار والمذاهب العالمية : كالعلمانية ، والاشتراكية ، الوجودية ، والرأسمالية ، والفاشية ، والنازية ، والديمقراطية ، والعولمة ، والنظام العالمي الجديد ...

إن المسلم لا ينبغى أن يعيش فى معزل عما يجرى حوله وإلا تخلف عنه فينبغى أن يكون متابعاً جيداً لما يدور حوله بل مشاركاً فاعلاً فيه .

ولم يكن المسلمون الأوائل بمعزل عن العالم الخارجى بل كانوا يتابعون الصراع الدائر بين الفرس والروم ، وكان النبى ﷺ يعلم أن فى الحبشة ملكا لا يُظْلَم عنده أحد، وأن الفرس لن يفلحوا لأنهم ولوا عليهم امرأة ، وأن جنود مصر هم خير أجناد الأرض ..

وترتب على جهلنا بالواقع أن تقدم غيرنا وتخلفنا ، صعدوا إلى القمر واكتفينا نحن بالغناء له ، تجمعوا حول الأهداف والمصالح الاستراتيجية ، واختلفنا حول أمور وقضايا فرعية ، حاربونا بأحدث الأسلحة الفتاكة ، وقاومناهم بالخطب العنترية البراقة .

إن أيدى الجهل والغباء والتخلف ما مست شيئاً إلا وأفسدته حتى ولو كان ديناً سماويّاً ، فلا يؤخذ دين إلا ممن صحت عقولهم واتسعت آفاقهم .

إن هؤلاء النصبيين الحرفيين يقفون بالعلم الدينى عند أقوال بعض علماء السلف يكررونها دون فهم لمنهجهم الفكرى ، والعملى وليس المراد بسنة الراشدين :

أقوالهم الجزئية : وآراؤهم الفردية فى الفقه أو التفسير أو ما شابه ذلك بل " منهجهم العام " فى فهم روح الإسلام ، وتطبيق أحكام القرآن والسنة أى اتباع المنهج الفكرى والعملى لهم وهو منهج متوازن يقوم فيما يقوم على الثبات على الأصول والغايات ، والمرونة فى الفروع والمسائل . (١)

ومن أفتى الناس بمجرد المنقول في الكتب على اختلاف عرفهم وعوائدهم وأزمنتهم وأمكنتهم وأحوالهم فقد ضلَّ وأَضَلَّ، وكانت جنايته على الدين أعظم ممن طبب الناس جميعهم على اختلاف بلادهم وعوائدهم بما فى كتاب واحد من كتب الطب بل هذا الطبيب الجاهل والمفتى الجاهل أضر ما يكون على أديان الناس وأبدانهم " (٢)

أما مفهوم العلوم الحديثة والتقنيات المتقدمة عند هؤلاء النصيين الحرفيين فهى من بدع الكفرة الفجرة ، ولا بأس من الاستفادة بالمخترعات النافعة أما الانشغال بهذه العلوم فإن لم يكن حراماً فعلى الأقل خلاف الأولى،والأولى عكوف المسلمين ، كل المسلمين ، على حفظ المتون والشرح ، والاكتفاء ببيع المصاحف والسُوُك (جمع سواك) وكتب التراث على أبواب المساجد لكسب الرزق .(٣)

مما أوقع الناس فى الحرج مع أن رفع الحرج عن الناس من مقاصد الشريعة الغراء .

ولم يفهم هؤلاء النصيون الحرفيون والظاهريون البدو أنه عندما لا نزرع ما نأكل ولا نصنع ما نلبس ، ولا ننتج ما نحتاج إليه ، ونتسول كل ذلك من الكفرة الفجرة ، بزعمهم ، فإننا نكون قد أسأنا فهم الدين والدنيا جميعاً .

ولم يفهم هؤلاء المتنطعون أننا لو اكتفينا بالدعاء على أعدائنا دون أن نشفع الدعاء بالعمل نكون قد رضينا من الغَنِيمَةِ بالإيَاب حتى الإياب السالم لن يمكننا أعداؤنا منه .

---

(١) د. يوسف القرضاوى " الخصائص العامة للإسلام " مكتبة وهبة ص ٢١٤ .
(٢) ابن قيم الجوزية " إعلام الموقعين " ج ٣ ص ٧٨ .
(٣) من بضع عشرة سنة ترك بعض طلاب كلية الطب دراستهم واكتفوا ببيع السُوُك ، والمصاحف ، وكتب التراث ، وكانت ظاهرة غريبة صدمت المجتمع كله وتناولها الكثيرون بالدارسة فوجودوا أنها من آثار الفهم الخاطئ للدين ، وأن هؤلاء الطلاب ضحايا بعض من الوعاظ الجاهلين بالدين والدنيا معاً .

وهذا الفهم الضيق للدين والعلم والدنيا يلزم المتنطعون أنفسهم به كما يلزمون الناس جميعا به ، بل ويحضُّونهم عليه ، ولما كان المدعو قصارى جهده أن يبلغ درجة الداعى فإن المدعوين من فئات المجتمع المختلفة قصارى جهدهم أن يكونوا هذا الواعظ المتنطع .

أما العلمانيون الذين نعنيهم فعلى النقيض من النصيين الحرفيين فإذا كان النصِّيون الحرفيون والظاهريون البدو يرمون الدنيا والعقل وراء ظهورهم فإن العلمانيين ، من الماركسيين والوجوديين والماديين .. ، يرمون الدين وراء ظهورهم ، وإذا كان الوعاظ النصيون الحرفيون يقدِّسون أقوال السالفين فإن المثقفين العلمانيين يقدِّسون كتب دارون ، ونيتشة ، وماركس ، وساتر، وفرويد ...

والخلاصة إن كان الوعاظ النصيون الحرفيون والظاهريون البدو يممون وجوههم قِبَل القديم ويعتبرون أن كل فهم جديد للدين بدعة ضالة وأن الوقوف عند حدود ما أَبدعه السالفين نجاة ؛ وأن السابق لم يترك للاحق شيئاً .

فإن المثقفين العلمانيين يممون وجوههم قِبَل الغرب ويعتبرون كل فهم قديم للدين تخلف ورجعية وأنه لا إيمان إلا بما يقوله العلم ، المادي ، والحكمة تقضى ، في نظرهم ، بأن نأخذ من الغرب فلسفته وفنونه وآدابه كما نأخذ علمه ومخترعاته أن نأخذ أفكار دارون ، ونيتشة ، وماركس ، سارتر ، وفرويد ... كما نأخذ علوم جاليليو ونيوتن وأينشتين ومندل ...

وإذا كانت حجة الوعاظ النصيين الحرفيين أن المسلمين ما وصلوا إلى ما وصلوا إليه فى أزهى عصورهم إلا بفضل تمسكهم بالدين ، واعتقادهم أن التمسك بأقوال وآراء بعض السلف سيحقق لهم ما تحقق لأسلافهم من ظهور على سائر الأمم . فإن المثقفين العلمانيين يقولون إن أوربا ما تقدمت إلا بعدما طرحت الدين وراء ظهرها وأخذت فى أسباب العلم المادى .

والحق أن كلا الفريقين مصيب ومخطئ ، فنعم تقدم المسلمون عندما تمسكوا بالإسلام لكن فهمهم للإسلام يختلف عن فهم الوعاظ النصيين الحرفيين له .

فقد فهموا الإسلام على أنه نظام شامل دين ودنيا ، مأثور ومعقول ، إيمان وعمل لا كما يفهمه النصيون الحرفيون على أنه نقل لا عقل فيه ومأثور لا فقه فيه وثبات لا تطور فيه !!

كما أن أوربا ما تقدمت إلا بعدما طرحت الدين وراء ظهرها وأخذت فى أسباب العلم المادى وهذا حق ، ولكن الحق أيضاً أن الدين الذي طرحته أوربا والذى كان عائقاً للتقدم العلميِّ والذي حكم رجال دينه على جاليليو بالهرطقة والكفر واضطروه إلى العدول عن نظرياته العلمية ! ليس هو دين الإسلام الذى يجعل العلم ، بمفهومه الشامل ، فريضة وأنه لا تعارض بين الفهم الصحيح للدين والحقائق العلمية .

أما ثالث الأثافى فهم الفنانون والإعلاميون وأعنى بهم دعاة الرذيلة والانحلال ومفسدى العقل والذوق منهم .

فإذا كان النصيون الحرفيون ، والعلمانيون الماديون أصحاب رأى ودعاة فكر ، وإن كنا نختلف معهم فى آرائهم وأفكارهم ، فإن هؤلاء الفنانين أصحاب هوى ودعاة غرائز دنيا يركزون على إثارة الغرائز الجنسية والشهوات النفسية وتدمير العقل وتغييب الوعى .

أولئك الذين يستخدمون الفنون والآداب فى إثارة الغرائز ، وتخريب العقل ، وتدمير الروح بدلاً من إثارة العواطف النبيلة ، والذوق الرفيع ، وإثارة الحماسة للعمل والجهاد .

هؤلاء لا همَّ لهم إلا تدمير المجتمع ، واستنزاف طاقته ، وثرواته ، مستغلين غياب الفهم الصحيح للدين ، واختلاط المفاهيم ، وضعف الإيمان .

مسكين شبابنا ، بل مساكين المسلمون في كل مكان ، إذ يخير بين أن يكون سلفيّاً لا عقل له أو علمانيّاً لا دين له ، أو ماجناً لا حياء له !! .

كما قال الشاعر :

اثنانِ أهلُ الأرضِ : ذو عقلٍ بلا * دينٍ وآخرُ ديّنٌ لا عقلَ له

كثيراً ما يسألني بعض الشباب عن رأيى فى : الغناء ، اللحية ، النقاب ، تنظيم الأسرة ، القيمة النقدية لزكاة الفطر ، التصوير ، فوائد البنوك ، أو غيرها من القضايا التى يشغل وعاظنا النصيون الحرفيون بها الشباب . صدقونى لا أدرى ماذا أقول لهم ؟

أحاول أن أرشدهم إلى ما هو أهم وأنفع ، وأن يأخذوا من أراء العلماء ما تطمئن له قلوبهم ولكن هذه الإجابة لا ترضيهم وأحاول أن أشرح سبب الخلاف فيظنونى أتهرب من الإجابة !!

وما عساه يكون جوابي أ ليس هو رأى من بين مئات الآراء المتضاربة المتصارعة الممزقة للأمة المهدرة لوقتها وجهدها ؟!

كثيراً ما أفكر في هؤلاء الشباب وأشفق عليهم ، وربما يكون الدافع من وراء هذا الكتاب هذه الحيرة وهذا التشتت الذي يزداد سوءاً يوماً بعد يوم . ربما أضاء لهم ، هذا الكتاب ، شمعة في هذه الكهوف المظلمة .

هذه أهم الطوائف المؤثرة فى توجيه المجتمع العربى ، وأكثر المتأثرين بهذه الطوائف الضالة من الشباب وإن كانت الطائفة الثالثة، الفنانون ،أكثر استهواء لهم .

وهذا لا يعنى أن بقية المجتمع راشدة وتسير على الصراط المستقيم صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين .

إنما الحقيقة المؤسفة أن هذه الأكثرية من أفراد المجتمعات العربية مشغولة بحياتها اليومية ، وفلسفتها الخاصة التى شكلتها بيئتهم الخاصة ، وعقيدتهم " متى كانت المصلحة الخاصة كان العمل والسعي " و " أنا ومن بعدى الطوفان " !

وقليل أولئك الباحثون عن الحق العاملون به ، قليل أولئك الذين يخلصون العمل لله ، قليل أولئك الذين يعبدون الله حق العبادة . وليس في هذا مبالغة ، ولا دعوة تشاؤمية إنما هى سنة الله فى خلقه { وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ } (يوسف : ١٠٣)

{لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ } (يس : ٧)

{ وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ } (الأعراف : ١٠٢)

وأن القليل أولئك السائرون على طريق الحق .

{ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِى الشَّكُورُ } (سبأ : ١١٣)

{ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنْ الْخُلَطَاء لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ } (ص : ٢٤)

وإليك هذه الأدلة الواقعية على أن أكثر المجتمع العربي مقصرون في العمل بشريعة الإسلام وسنة خير الأنام .

هل تذكر آخر مرة ذهبت إلى مصلحة حكومية لقضاء حاجة لك ؟

أتذكر كم مرة أجبرت فيها على دفع رشوة لتحصل على حق من حقوقك : استخراج رخصة قيادة أو تجديدها ، تركيب تليفون أو إصلاح أعطاله ، استخراج أى شهادة أو تصريح ...

هل لك تلميذ فى إحدى مراحل التعليم المختلفة ؟

أتذكر كم واحد من القائمين على العملية التعليمية أدى واجبه على الوجه الذى يرضى الله دون انتظار مقابل ؟!

أتذكر كم طبيب زرته ليخفف من آلامك فزادها ؟! إما بتفاقم العلة أو بتفاقم المبلغ الذى تقاضاه منك !

أتذكر يوم أن أردت بناء بيت لتسكن فيه أنت وأولادك ؟ أتذكر كم من الأموال دفعتها لموظفى الحى لاستخراج رخصة البناء أو إدخال المرافق من ماء وكهرباء؟!

أتذكر يوم استعملت عاملاً ، أي عامل ، سباك ، نقاش ، كهربائي ، سمكري ، ميكانيكي ، نجار ...

أتذكر كم واحد من هؤلاء أنجز مهمته على الوجه الذى يرضى الله ، وفى الميعاد المتفق عليه ؟ وكم واحد من هؤلاء أخذ فقط الأجر الذى يستحقه دون استغلال ؟!

أظنك الآن قد اقتنعت أشد الاقتناع .

وإذا لم تكن مقتنعاً بما سبق أو أنك قليل الخبرة بالحياة فسأعرض عليك صورة تراها كل يوم وربما لم تعد تستوقفك من كثرة ما اعتدت عليها إنها صورة الشوارع، وخاصة في الأحياء الشعبية ، فالشارع قد يتسع لأربع أو خمس سيارات ومع ذلك فإن حالات اختناق المرور مزمنة رغم هذا الاتساع ويرجع ذلك لأعمال الحفر التي لا تتوقف أبداً ، والتي لا يتم إصلاحها بعد إتمام المهمة فيها ، وإن تمَّ إصلاحها فسرعان ما يستولى أصحاب المحال على بضعة أمتار من الشارع

ليعرضوا فيها بضائعهم ، غير قانعين بمحالهم ، ثم يأتي الباعة العشوائيون ليستولوا على بضعة أمتار أخرى من الشارع فلا يبقى من الشارع إلا ما يسع عربة واحدة فقط ، إن وسعها ، يشاركها فيه المارَّة أيضاً ؛ لأنهم لا يجدون رصيفاً وقد احتله الباعة ، وإذا توقفت سيارة ، وكثيراً ما يوقف سائقو الميكروباص والتوك توك سياراتهم وقوفاً متكرراً وسط الطريق ، يتوقف على إثره قطار من السيارات ، وإذا حاولت الحكومة إصلاح الأمر وإخلاء الطريق من التعديات ومن الباعة الخارجين عن النظام ضرب الناس كفاً بكف عجباً ولعنوا هؤلاء القساة الظالمين الذين يحاربون الناس فى أرزاقهم مع أن المارة هم أكثر الناس تضرراً من هذه الفوضى وطالما شكوا من هذه الفوضى وعدم النظام الذي عطَّل أعمالهم وضيع أوقاتهم ، وبعد ساعة أو أقل يعود الشارع كما كان أو أسوأ مما كان ، وفى الغالب لا يحدث تنظيم لفوضى الشوارع إلا بسبب مرور أحد المسئولين من هذا الشارع وبعد مرور الرئيس أو الوزير أو المسئول أيّاً كان يعود الوضع على ما كان عليه ، وبدلاً من قيام عمال البلدية بواجبهم فى إصلاح حال الشوارع والمرور والعمل على استتباب النظام يمد كثير منهم أيدهم ليأخذوا رواتب إضافية من المخالفين للنظام ، وهم بهذا يأخذون رواتب من الحكومة على إفساح الطريق لكبار المسئولين فقط ويأخذون رواتب أخرى من المخالفين لسد الطريق على المواطنين !!

ثم يضج الناس بالثورة على الحكومة والنظام وأن هذا البلد لم تعد يُطاق مع أن أخاه هو صاحب المحل الذى استولى على الرصيف الخاص بالمشاة وابن عمه هو الذى وضع عربة الفاكهة ليسد بها الطريق وابنه هو سائق الميكروباص ، وابن خاله هو عضو مجلس الشعب الذى حافظ على هذه الفوضى لصالح أصحاب النفوذ من الفوضويين الذين يعطونه أصواتهم فى الانتخابات ، وأن عمه هو واعظ المسجد الذى ما نهى عن هذه المنكرات .

إن الناس تظن أن النظافة والنظام والعمل والإتقان تهبط على الناس من السماء ولقد هبطت على أوربا وأمريكا فتحضروا وأخطأت طريقها إلى بلادهم فتخلفوا !!

لكن ليس معنى هذا أن الحياة خلت من المؤمنين الصالحين المصلحين فهم موجودون في كل زمان ومكان لكن للأسف قليلون { ثُلَّةٌ مِّنَ الأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِّنَ الآخِرِينَ } (الواقعة : ١٣ ، ١٤) وأصواتهم غير مسموعة وأعمالهم غير مرئية ،

ودعوتهم مستنكرة ، فهم فى نظر الوعاظ النصيين الحرفيين مقصرون في العبـــادة والعلم الشرعي ، وفى نظر العلمانيين والفنانين والإعلاميين هم والوعاظ الحرفيون سواء ظلاميون رجعيون .

وإذا كان هذا هو حال القوى الموجِّهة ، وحال فئات الشعب المختلفة .

فهل نتوقع أن يكون لنا شأن أو قيمة فى هذا العالم ؟

لقد وقفنا فى على سبب تخلفنا فماذا عساه يكون طريقنا للتقدم والرقى ؟

هذا ما نحن بصدده الآن .

إن الذى أدَّى إلى تخلف المسلمين هو الفهم الخاطئ لطبيعـــة الإنـــسان ، ولنظـــام الكون ، ولخصائص الدين الإسلامى .

فالإنسان ليس روحاً فقط كما فهم الوعاظ ، وليس عقلاً فقط كما فهم العلمـــانيون، وليس غرائز جنسية فقط كما فهم الفنانون ، إنما الإنسان : روح ، وعقل ، وجسد ، وقلب . {لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ } (التين : ٤)

وأن من غذَّى جانباً من كيان الإنسان وأهمل الجوانب الأخرى كمن اكتفى بطعـــام واحد وأهمل سائر الأطعمة فحتماً سيصاب بالأمراض الناتجة عن ســـوء التغذيـــة ، فسوء التغذية لا ينتج عن قلة الطعام إنما عن عدم تنوعه ليشمل جميع العناصر التى يحتاجها الإنسان فالجسد يحتاج إلى كافة العناصر الغذائية حتى يصح كـــذلك مـــن غذَّى جانباً واحداً من جوانب الإنسان وأهمل بقية الجوانب أو بعضها فإنـــه حتمـــاً سيصاب بنقص فى إيمانه يعرضه للانحراف فى سلوكه .

لقد خلق الله تعالى الإنسان متوازناً ، والكون متوازناً ، وأنزل دينه متوازنـــاً فـــإن طبق الإنســـان دين الله فى فهم نفســـه وفى فهم الكـــــون فإنـــه يحقـــق خلافـــة الأرض، وهى عبادة الله وتعمير الكون و تزكية النفس .

{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً } (البقرة : ٣٠)

{ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـــهٍ غَيْـــرُهُ هُـــوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا } (هود : ٦١)

فالآية الأولى تبين مهمة الإنسان فى الأرض وهى أن يكون خليفة في الأرض ، والآية الثانية تبين مفهوم هذه الخلافة وهى عبادة الله وتعمير الكون .

ولن يتحقق هذا إلا باتباع كتبه ورسله .

فإن أخذ الإنسان منهج الله وطبقه على كون الله ومخلوقاته تناغمت حياته وحياة بقية الكائنات ، وكوَّن مع بقية الكائنات منظومة بديعة ، ويؤتيه الله { ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } (آل عمران : ١٤٨)

وثواب الدنيا : السعادة ، والتقدم ، والظهور على الأعداء ...، وثواب الآخرة {جَنَّاتٍ تَجْرِي من تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } (التوبة : ٧٢)

وإن لم يفهم نفسه ، ولم يفهم دين الله أصبح نغمة شاذة وسط لحن قدسي عظيم فأتعس نفسه ، وأفسد حياته وآخرته .

وسنحاول في هذا الكتاب أن نبين عناصر خلق الإنسان وكيف خلقه الله تعالى متوازناً ؟

ثم نبين التوازن فى الكون ، ثم نكشف عن توازن منهج الله فى التعامل مع مكونات الإنسان المختلفة ، ومع عناصر الكون المختلفة .

* * *

openkandl.com